الفصل الثاني

أسلوب النَّهْي وبلاغته وجمالياته

توطئة: مفهوم النهي

يقع النهي بعد الأمر في الطلب، ويتفق معه من جهة الاستعلاء وارتباطه بالمخاطب، وإرادة المتكلم الفاعل للمعنى على نَهْي المخاطب عن أمر ما، ليصبح منهياً عنه... ومن ثم، فالآمر أو الناهي لا يوجه الأمر أو النهي إلى نفسه إلا على جهة المجاز.. ويختلف عنه بالصيغة، فللنهي صيغة وحيدة؛ وهي الفعل المضارع المقترن بلا الناهية؛ نحو (لا تكذب) بينما كان للأمر صيغ أربع... ويشتمل الأمر على توافر إرادة الآمر، بينما يحتوي النَّهْي على كراهية مَنْهيٍّ[21]. فالنهي: خلاف الأمر (نهاه، ينهاه، نَهْياً؛ فانتهى وتناهى): كفَّ. إذن؛ فالنهي طلبُ الكفِّ عن فعل شيءٍ ما من المخاطب على جهة الحقيقة أو المجاز... ومن هنا فأسلوب النهي يقسم إلى قسمين الحقيقي والمجازي...

القسم الأول: النهي الحقيقي

النهي الحقيقي هو طلب الكَفِّ عن شيءٍ ما على جهة الاستعلاء من الأعلى إلى الأدنى لتنفيذه على وجه الإلزام والإيجاب... فالمتكلم يقدم ذاته بوصفه يلقي الكلام إلى المخاطب وعلى الأخير تنفيذ مضمونه...

وهذه الصيغة من النهي تفيد تشريعاً ما في النواهي الاعتقادية الدينية خاصة والنواهي الدنيوية عامة؛ أو تشديد الرغبة في وقوع فعل على هيئة معينة كما انتهى إليه الزمخشري ومن دون أن يقدّم المسوغات -أحياناً- وعلى المخاطب إدراك فحواها.

obeikandl.com

ومن ذلك خطابه تعالى للرسول الكريم: ﴿ولا تُصَلِّ على أَحَدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قَبْره﴾ (التوبة 84/9). فالله -سبحانه - ينهى رسوله الكريم عن أن يصلي على الكافرين والمنافقين... ثم يحدد نمطاً من هذه الأفعال المنهي عنها... وربما يبين كيفية هيئة الصلاة بشكل محدد من خلال نَهْي ما عن فعل قد يقع من المخاطب كما في قوله تعالى: ﴿ولا تجهَرْ بصلاتكَ ولا تُخافتْ بها وابتغِ بيْنَ ذلك سبيلاً﴾ (الإسراء 110/17). فليس المنهي عنه هو الصلاة؛ إنّما المنهي عنه أن يصليها بجهارة الصوت أو بخفوته. ومنه قوله: ﴿ولا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى﴾ (النساء 43/4). ومن النواهي الدنيوية قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يَأْلُونكم خَبالاً﴾ (آل عمران 118/3). فالله ينهى الإنسان عن أن يتّخذ بطانةً له ليس قادرة على نُصحه؛ وإن كانت من جنسه وملته... وكذلك قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ (الأنعام 152/6) وقوله: ﴿ولا تُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ (الأعراف 85/7) وقوله: ﴿ولا تجسَّسوا ولا يَغْتبْ بعضكم بعضاً﴾ (الحجرات 12/49).

وهذا كله يؤكد أن أسلوب النهي لا يتصل بالبلاغة العربية وحدها وإنما يتصل بعلوم القرآن وإعجازه وعلومه وبالفقه وأصوله... وقد مَدَّت جسورها لتصل فيما بينها وبين علم النحو وعلوم البلاغة... وحين استنبط الباحثون والأحكام الزاخرة في الجملة من جهة علم من علوم القرآن أو غيره لم يكتفوا بالحكم على مستوى التركيب الظاهري وإنما غاصوا وراء ما يختزنه الأسلوب اللغوي فخرج من الأسلوب المباشر الذي يقوم عليه النهي الحقيقي إلى الأسلوب غير المباشر في النهي المجازي. فالأسلوب البلاغي ينقل الشيء من حال إلى حال كما هو في قول بشار بن برد:

ولا تَجْعلِ الشُّوْرى عليكَ غَضاضةً فإنَّ الخَوا في قُوَّةٌ للقوادمِ

وخَلِّ الهُوَيْنى للضَّعيف ولا تكُنْ نَؤُوماً فإن الحَزْمَ ليس بنائمِ

فالغضاضة ذِلَّة ومَنْقصة وخِسَّة وضَعْف وعدم خبرة... ومن هنا ساقها بشار

في إطار سياقي إيجابي لا في الإطار السلبي الذي تحمله اللغة لها... حين قدم النَّهي عليها بكلمة (لا تجعل). وبهذا رفع التعسف والإكراه عنها وعن كلمة (الشورى) التي تتضمن الموقف المطلوب... ورفع من نفس المخاطب التردد والخوف من إقدامه على المشورة... ولم يكتف بذلك بل جاء بجملة تقريرية تعليلية بعدها؛ وكأن هذه الجملة بمنزلة البرهان على الحكم الذي تضمنه النهي (لا تجعل)... وبهذا أكد الإقدام على استشارة ذوي الرأي والحكمة... فالطيران لا يتحقق إلا بتعاون بين ريش القوادم وريش الخوافي.... وفي هذا الأسلوب البديع من النهي الحقيقي يقف بشار كالنسر الأشم ليلقي بحكمته وخبرته... وليوضح للناس بيان مساوئ الاستبداد بالرأي... فكأن الاستبداد بالرأي يماثل في المعنى ما تشير إليه كلمة (غضاضة)... فالعلاقة البلاغية بين أسلوب النهي والرسالة التي يحملها لم تعد علاقة متوترة بين المتكلم والمخاطب؛ وإنما هي علاقة مودة ومحبة تبسط روح التعاون وجوهره الحقيقي.

وبهذا ندرك أن أسلوب النهي وإن استعمل في المعنى الحقيقي لا يقتصر على الدلالة النحوية المباشرة، أو المعيارية اللغوية لترتيب الجملة وما تفرضه على المتلقي من تناولها الدلالي القريب. فالترتيب اللغوي للتركيب النحوي وسيلة إيجابية لفهم المعنى المباشر... ولكن المتلقي إذا وقف عنده أذهب بهاء الجمال الفني والبلاغي الذي تنطوي عليه أساليب النهي أو غيره... فلا بد من استحضار الغاية الأبعد من البنية المباشرة لأسلوب النهي... وهذا ما يتضح لنا من أساليب النهي المجازي.

فمن يتأملها ويستقر بها واحداً واحداً وينظر إلى مواقعها في عملية الصياغة الجمالية فسيجد فيها من اللطف والظَّرْف ما يجعلها كالقلادة في الجيد. فأسلوب النهي عامة والمجازي خاصة له من سحر الجمال ما تقصر العبارة عن أداء حقه، والمعول عليه أن تراجعه النفس وتتأمل فضاءاته، ولا سيما أن القدماء قد توسعوا فيه. فوراء ذلك حشد عظيم من الرؤى الفكرية والفنية التي تكاملت مع الأشكال الجمالية لتحقق نمطاً من الإبداع الأخاذ... وهو

إبداع يؤكد أنه لم ينضج دفعة واحدة وإنما تعاقبت عليه أزمان وعقول وأفكار حتى وصل إلى هذا الطراز الرفيع من الكلام؛ طراز لم يكتف بما يحمله من أساليب فريدة، وآراء مخترعة، وجماليات مثيرة؛ وإنما كان سباقاً - أيضاً - إلى إبداع مصطلحات بلاغية وأسلوبية ونقدية قدمت للنقد الحديث ومدارسه الكثير من الخدمات التي يتطاول بها كل مخلص لتراثه.... فالتشكيل الجمالي النقدي ثم التشكيل الاصطلاحي إنما يميز مذاهب البلاغيين القدامى من العرب في الإنشاء وغيره؛ حقيقة ومجازاً؛ ويجسد حقيقة التناغم في كل شكل لغوي صاغه المتكلم لهدف من الأهداف... وبهذا ينتج كل أسلوب لذته الخاصة به. وهو في المجاز أكثر إثارة كما يأتي.

obeikandl.com

القسم الثاني: النهي المجازي

هو طلب الكفّ عن شيء لا على سبيل الاستعلاء، بل على سبيل المجاز من المخاطب سواءً كان مساوياً له أم أعلى مكانة منه، أو ممن هو أقل شأناً منه لأمر بلاغي...

وقد عرض السكاكي أكثر معانيه التي يخرج إليها في كتابه (مفتاح العلوم) وكذلك[22] قام من جاء بعده. فقد توسع البلاغيون بأسلوب النهي، وقلبوا وجوهه فكشفوا عن معانٍ دلالية كثيرة، فأصبح ذا حيوية فعّالة بما فيه من غنىً في أساليبه الجمالية؛ منها:

1. **الدعاء:**

هو الرغبة إلى الله والتوسل إليه، ولفظ (الدعاء) اسم ومصدر؛ ومثله (الدعوى) وفعله دعا ـ يدعو؛ كما يقع بألفاظ دالة عليه. ويكون من الأدنى إلى الأعلى على سبيل الاستعطاف والرجاء والتوسل والتضرع... كقوله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نَسِينا أو أَخطأنا، ربنا ولا تحمِلْ علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ (البقرة 2/286). وقال النابغة الذبياني يعتذر إلى النعمان؛ ويتوسل إليه للعفو عنه:

لا تَقذِفَنّي برُكْنٍ لا كِفَاءَ لهُ ... وإنْ تأثَّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ

وقال كعب بن زهير يمدح رسول الله؛ ويعتذر إليه:

لا تأخذَنّي بأَقوالِ الوُشاةِ ولم ... أُذْنِبْ ولو كَثُرَتْ فيَّ الأَقاويلُ

وقال مسلم بن الوليد في الرشيد:

لا يَعْدِمنْكَ حِمَى الإسلامِ من ... أَقَمْتَ قُلَّته من بَعْدِ تَأْويدِ

وقال البحتري في مدح الخليفة:

لا تخلُ من عيشٍ يكُرُّ سُرورُهُ ... أبداً ونَوْروزٍ عليكَ مُعَادا

إن كل بيت من الأبيات السابقة ينطوي على وظيفة ما، وهدف من الأهداف التي توخاهما المتكلم من المخاطب في أسلوب النهي بيد أن الجمال الفني فيه وفي أمثاله يستند إلى الطاقة الروحية للإنسان وارتقاء صورها النفسية والاجتماعية في الذات المتلقية... وكذا نجده في الأساليب الآتية.

2. الالتماس:

اسم ومصدر، وفعله التمس يلتمس: طلب . يطلب، ويكون في النهي المجازي بأسلوب يدل عليه السياق. وهو يقع بين النظراء في المنزلة أو القرابة أو بين الأصدقاء وأمثالهم كقولنا لصديق: (لا تتوانَ عن المجيء) وكقوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: ﴿يا ابْنَ أُمَّ، لا تأخذْ بِلِحْيَتي ولا برأسي﴾ (طه 94/20) وقول المتنبي:

قِفَا تريَا وَدْقي فهاتا المخايلُ ولا تخشيا خُلْفاً لما أنا قائلُ

وقال المعري:

لا تَطْويا السِّرَّ عنِّي يومَ نائبةٍ فإنَّ ذلكَ ذَنْبٌ غَيرُ مُغْتَفرِ

وقال دِعْبل:

لا تأخذا بظُلامَتي أَحداً قَلْبي وطَرْفي في دَمي اشتركا

3. التمني:

ويكون لما لا يحصل، ويتوجه فيه أيضاً لما لا يَعْقِل، كقولنا: (لا تدوري أيتها الأرض) و(لا تغيبي أيتها الكواكب..) وكقول الخنساء:

أَعينيَّ جُودا ولا تجمُدا أَلا تبكيانِ لصَخْر النَّدَى؟!

وقول الآخر:

يـــا ليـــلُ طُـــلْ، يـــا نَـــومُ زُلْ يـــا صُـــبْحُ، قِـــفْ لا تَطْلَـــع

وقال أبو نواس في مدح الأمين:

يـا نـاقُ لا تسـأمي أو تبلغـي ملكـاً تقبيـــلُ راحَتِـــهِ والـــرُّكْنِ سِـــيّانِ

فكل فعل مضارع سبق بلا الناهية لم يكن محصوراً بدلالته اللغوية المباشرة وإنما شكل دلالته وجماليته في إطار العلاقة السياقية للجملة برمتها وهي تتساوى مع أختها... علماً أن أي مزية لا تكمن في اللفظ بحد ذاته؛ ولا بالمعنى وحده؛ وإنما يبنى بعضه على بعض ليتخذ الأسلوب الشكل الأجمل والأفضل؛ كما انتهى إليه -من قبلُ -إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني.

فالأسلوب البلاغي ـ هنا ـ لا يقتصر على المثير الإنساني أو المثير التاريخي والاجتماعي وإنما يندمج في المثير الطبيعي في إطار الذات الفردية لِمَا تتلقفه الحواس من الوسط الطبيعي الذي أضاف إليه الخيال روح المغامرة العقلية، فجمع بين المتعة والفائدة؛ وهو سمة الفن الجميل.

4. النصح والإرشاد:

يتم هذا الأسلوب للتوجيه في أمر من الأمور أو للتنبيه عليه والنهي عنه؛ على سبيل النصح والإرشاد؛ لا على سبيل الإلزام والإيجاب؛ كقوله تعالى: ﴿لا يأبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ (البقرة 282/2) وقوله: ﴿لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ (المائدة 101/5)، وكقولنا لمن يلتفت في صلاته: (لا تلتفت وأنت في الصلاة)، وكقول الشاعر:

فـلا تُلـزِمَنَّ النـاسَ غـيرَ طبـاعِهم فتتعـبُ مـن طـولِ العتـاب ويتعبُـوا

وقوله:

ولا تغتَـــرِرْ مـــنهم بحُسْـــنٍ بشاشَـــةٍ فـأَكثرُ إِيْمَـاضِ البـوارقِ خُلَّـبُ

obeikandi.com

وقال المتنبي في سيف الدولة:

أَخا الجود أَعطِ الناسَ ما أَنْتَ مالِكٌ ولا تُعطيَنَّ الناسَ ما أَنا قائلُ

وقال المعري:

لا تَحلِفَنَّ على صدْقٍ ولا كَذِبٍ فما يُفيدكَ إلاَّ المأثمَ الحَلِفُ

فالأسلوب البلاغي - هنا، وفيما يأتي - لا يعتمد على مبدأ الإقصاء والتعالي وإنّما يهدف إلى وظيفة جمالية أخلاقية ترتقي في مكوناتها الفنية والاتصالية لتجعل الفعل أرقى وأكمل... أما إذا أصر المخاطب على ما هو فيه؛ أو ما يقوم به فلا يضير المتكلم شيئاً... فالأخير أدّى واجبه الخلقي والاجتماعي نحوه وكفى... ولعل هذا كله يربط علم البلاغة بوظيفة اجتماعية راقية، وهي وظيفة تنبثق من صميم ما وضع الكلام له في أصله وسياقه... فالجمال لا ينحصر في الشكل الخارجي للصورة البلاغية، بل يغوص في مضمونها الدلالي والنفسي والاجتماعي وهو ما نراه فيما يأتي أيضاً...

5. التأديب:

هذا الضَّرب شبيه بالسابق لكن الغاية منه إرساء خُلُق كريم أو النهي عن سلوك سيئ... فغايته تأديب السامع وليس مجرد نصْحه؛ كقولنا: (لا تأخذنَّك في اللص رحمة ولا شفقة)؛ وكقول الشاعر:

ولا تهينَنَّ الفقيرَ علَّكَ أَنْ تركعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

فالحاجة إلى مثل هذا الأسلوب تنبع من الوعي برغبة الإصلاح الاجتماعي وليس من قبيل الضغط عليه، أو إكراهه على فعله؛ وعليه قول الآخر:

وإياكَ والميتاتِ لا تقرَبْنَها ولا تعبدِ الشيطانَ، واللهَ فاعبدا

ونهى الطُّغْرائي المخاطب عن التطلع إلى العلا إن لم يأخذ بالأسباب فقال:

لا تطمحَنَّ إلى المراتب قبل أن تتكاملَ الأدواتُ والأسبابُ

وقال تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين.... ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ (الأنعام 141/6 ـ 142). فالقاعدة الخلقية -في هذا المقام -تتكامل مع فكرة الاقتصاد في الحياة؛ وهو مذهب جمالي يتجه إلى الحق والخير، ومثله الأسلوب الآتي.

6. استنهاض الهمة والحث على الشيء:

قد يجتمع في هذا الضَّرب شيء من معاني النصح والإرشاد والتأديب، ولكن الغاية منه استنهاض الهمة على أمرٍ ما، والحث عليه وتجنب فعل آخر لكراهيته لا لسبب آخر، ما يعني أن المتكلم يقدّر المخاطب ويحترمه، أياً كان وضعه؛ كقول المعري:

ولا تجلسْ إلى أَهْل الدَّنَايا فإنَّ خلائقَ السُّفَهاء تُعْدِي

وقال الشاعر يستنهض همة قومه وإرادتهم بعد هزيمتهم في إحدى المعارك:

لا تيأسوا أن تسترِدُّوا مجدَكم فلربَّ مَغْلوبٍ هَوى ثم ارتقى

فالنص -صغر أم كبر -محكوم بمكونات لغوية بلاغية تبني تفاعلاتها في الوظيفة التي ترسخها في النفوس وتزيد تأثيراتها التبادلية كلما ازداد استيعاب المتلقي للأسلوب البلاغي وإدراك أسراره.

فالبعد البلاغي في وظائفه الاجتماعية والنفسية ينبثق من السياق الدلالي غير المعزول عن الفضاء والزمن... فعلاقة الأسلوب بالآخر علاقة الفرد بالجماعة في سياق يرنو إلى المثل الأرحب اجتماعياً وأخلاقياً، ولا يحكم بالمناسبة العابرة.

وهذا كله يؤكد أن الجانب الذاتي والنفسي امتداد للذوات الأخرى.

ولعل الأساليب الثلاثة السابقة وبعض الأساليب القادمة حتى الأسلوب العاشر توحي بأنها تلبية لحاجات نفسية وروحية واجتماعية، قبل أن تؤكد

الإحساس باللذة الجمالية.

7. التيئيس وإحباط الهمم:

هذا الأسلوب يدل على عكس المعنى السابق الذي يتجه إليه أسلوب النهي المجازي؛ أي إن انتقاء تحقيق المعنى ناتج من عدم إمكان المخاطب إنفاذه... ومهما فعل المخاطب من أمر فلن يفيده؛ كقوله تعالى: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ (التوبة 66/9). فالمنافقون الذين كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبرسوله جاؤوا يوم القيامة وقد حقت بهم كلمة العذاب فشرعوا يعتذرون عما فرط منهم فجاء الجواب بالنهي عن ذلك ﴿لا تعتذروا﴾ فقد كنتم تظهرون الإيمان وتؤذون الرسول... وعليه قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لا تَطْلُبنَّ كريماً بعْدَ رُؤْيتِهِ إن الكرام بأسخاهم يَداً خُتموا

فالمرء مهما بذل من جهد ليعثر على رجل جواد غير سيف الدولة فهو عاجز عن ذلك لأن الكرماء خُتموا بأكرم واحد فيهم؛ وهو سيف الدولة... وقال الشاعر:

لا تَعْرضَنَّ لجَعْفَرٍ متشابهاً بنَدَى يَدَيْهِ فلسْتَ مِنْ أَنْدادِه

فالشاعر يخاطب سامعه ألا يبذل السعي والجهد ليصل إلى مرتبة جَعْفر في الجود والكرم؛ فهو أقل من ذلك ولن يجني إلا الخيبة. وعليه قول النابغة في تعيير عامر بن الطفيل بالجهل و وصفه بالعجز:

ولا تذهبْ بحِلْمِكَ طِاميَاتٌ من الخُيَلاءِ ليسَ لهُنَّ بابُ

8. باب عاقبة الشيء:

يبين فيه المتكلم عاقبة أمرٍ ما كالظلم أو الغفلة أو التقصير أو العناد أو النفاق أو الكذب أو الكفر[23] كقوله تعالى: ﴿ولا تحسبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل اللّهِ أمواتاً﴾ (آل عمران 169/3). فالجهاد في سبيل الله جزاؤه جنات عَدْن تجري من تحتها الأنهار؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تقتلُوهُ عسَى أن يَنْفَعَنا أو نتخذَهُ

ولداً﴾ (القصص 9/28). فعاقبة عدم قتل موسى كما تقول امرأة فرعون؛ إما أن تتخذه ولداً وإما أن تتخذه لمقاصد نفعية. وقال النابغة الذبياني:

قلْتُ لها وهي تسعى تَحْتَ لَبَّتِها ... لا تَحْطِمَنَّكِ إنَّ البَيْعَ قَدْ زَرِمَا

قوله: (لا تحطمنك...) أراد نَهْي تلك المرأة أن تعدو إلى جانب ناقته لتبيعه الأَدم؛ إنه ينهاها عما تفعله وإلا حطمتها ناقته ولاسيما أن البيع قد انتهى وانقطع. ومن يتأمل هذا المعنى يلحظ مستوى قيمة الوعي المصحوب بعملية التقويم الفكري، وهو منبع الجمال ومصدره فيه.

9. التهديد والإنذار والوعيد:

ويكون غالباً لكل من يعاند في أمر ما، أو يخالف فيه قول الحق، ولا يرتدع إلا بالنهي الذي وجه إليه... كقولنا للخادم: (لا تُطع أَمْري) و(لا تمتثل له) و(لا تقلع عن عنادك)... وكقوله تعالى: ﴿قل: يا أَهْلَ الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق؛ ولا تتبعوا أهواءِ قومٍ قد ضَلُّوا من قبل وأَضَلوا كثيراً، وضَلُّوا عن سواء السبيل﴾ (المائدة 77/5).

وكقوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (المائدة 87/5). فمن يتأمل هذه الشواهد يدرك أنها حالة عقلية قبل أن تكون حالة عاطفية انفعالية؛ ما يبرز القيمة الجمالية في نسب اتصال الصورة الجمالية بين العقل والعاطفة، وهو ما نراه - أيضاً - في عدد من الشواهد الشعرية؛ كقول النابغة الذبياني:

لا تُرهبيني بقومٍ وانظري نظري ... هل مثل واحدِهم من مَعْشرٍ رجلُ؟!

وقول زهير بن أبي سلمى:

ولقد نهيتكمُ وقلْتُ لكم: ... لا تقْرُبُنَّ فوارسَ الصَّيداءِ

وقول المسيب بن زيد مناة:

لا تنكروا القَتْلَ وقد سُبَيْنا ... وفي حَلْقكم عَظْمٌ وقد شَجِيْنا

فالفعل المنهي عنه من قبل المتكلم -في أي أسلوب -مما تقدم أو مما

يتبع يتصف بقوة التحريض لعدم القيام به ما يؤكد حالة الانفعال النفسي؛ ومسوغاته التي تزيد جمالية الصورة البلاغية...

10. **اللوم والعتاب:**

هو طلب الكف عن شيء على سبيل اللوم، أو العتاب كقول المتنبي:

فـــلا تَلمْهـــا علـــى تواقُعِهـــا أطرَبَهـــا أَنْ رأَتْـــكَ مُبْتَسِـــما

فالنهي فيه تلطف وترفق بالمخاطب، وكذلك قوله:

لا تلمُـني؛ فـإنني أعشـقُ العُشَّـ ـاقِ فيهـا يـا أعـذل العُـذَّالِ

وعليه قوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ (الحجرات 11/49).

ونرى أن هذا الأسلوب الجمالي المثير يزداد تأثيراً حين يمتح عناصره من البيئة التي يتكون فيها وكأنه ليس له وجود مستقل خارج النفس البشرية وموضوعها الاجتماعي والمعرفي والفني.

11. **التحقير وتصغير الشأن:**

قد يكون المخاطب ذا شأن وجاه فيأتي خطاب النهي لينقص من قدره؛ ويهوي به إلى الحضيض كما هو عليه هجاء المتنبي لكافور الإخشيدي:

لا تَشْترِ العبدَ إلاَّ والعَصَا معَهُ إنَّ العبيـــد لأَنْجـــاسٌ مَناكيـــدُ

ونحوه ما فعله المتنبي حين استصغر الشعراء الآخرين، وخاطب سيف الدولة لكي يرى رأيه فيهم، فقال:

ولا تُبـالِ بشِـعْرٍ بعْـدَ شـاعرِهِ قـد أُفْسِدَ القـولُ حتـى أُحمِدَ الصَّمَمُ

ولعل جمالية هذا السياق يعبر عن ذاته حين تحدث المتنبي عن شاعر آخر وكأن لا علاقة له به.

وقد يلجأ المتكلم إلى نهي المخاطب عن أمر ما؛ لأنه أصغر من أن يفعل ذلك؛ كقول الشاعر:

لا تَحْسَبِ المجدَ تَمْراً أنتَ آكلُهُ لنْ تبلغَ المجد حتَّى تَلْعقَ الصبرا

ولعل هذا المعنى يوحي بمدى العلاقة بين الجمال والمجتمع، إذ يظهر الجمال في صميم العلاقة الاجتماعية التي تتجلى في الأسلوب البلاغي ومستوياته الدلالية المؤسسة على السياقات النصية.

12. التوبيخ والتبكيت:

هذا النمط يتضمن من المعاني التقريع والحط من القدر بشكل أعظم من السابق؛ وأكثر ما يكون المخاطب فيه مدعياً، كاذباً، منافقاً؛ مخادعاً أو ذليلاً... ويزعم غير الذي هو عليه... كقوله تعالى: ﴿ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ (البقرة 42/2). فالله يوبّخ بني إسرائيل لأنهم جعلوا الشيء متشابهاً بغيره حين خلطوا بين الحق المنزل عليهم بالباطل الذي اخترعوه، ومن ثم كتموا ما فعلوه حتى لا يميز الناس بينهما... وعليه قوله تعالى: ﴿ولا تَلْمِزُوا أنفسَكم ولا تَنابزوا بالأَلقابِ بئسَ الاسمُ الفُسُوقُ بعد الإِيمان﴾ (الحجرات 11/49)...

فالنهي هنا وصل إلى درجة تبكيت كل مؤمن وتقريعه تقريعاً شديداً إن راح يلمز هذا ويلقب ذاك بألقاب مؤذية... فقد وصل الأمر بخطاب النهي إلى تهجين فعل أولئك القوم. ومثله قول أبي الأسود الدؤلي فيمن يدعو إلى الخير ويفعل الشر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليكَ إذا فَعلْتَ عظيمُ

ويوبخ المتنبي ذلك الذليل الذي ظهر على غير حقيقته فيقول:

لا يُعجِبَنَّ مَضِيْماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يَروقُ دَفيناً جَودةُ الكفَنِ

فجمالية النص لا تكمن في ماهية التجربة، فقط، بل في كونها غدت

مادة للتعميم في صورة الذليل الذي بلغت السخرية فيه إلى حدّ التبكيت، بل قد يصل التقريع والتبكيت بأحد الشعراء إلى أن يقول للمخاطب؛ في صورة التعميم أيضاً:

لا تطلب المجدَ إن المجدَ سلَّمُهُ صعبٌ وعِشْ مستريحاً ناعم البالِ

فإدراك المعنى مرتبط بالحس والتقدير اللذين يمتاز بهما المخاطب، لمعرفة السياق البعيد حين تغدوا الذات مغتربة عن واقعها وقدراتها حتى تعتقد أن كل أمرٍ عظيم يمكن بلوغه، ودونه خَرْط القتاد. وهذا ما يدل عليه أسلوبَ النهي في التعجب أيضاً...

13. التعجب:

إذا كنا قد بينا معنى التعجب من قَبْلُ؛ وكل دلالة لغوية لأي أسلوب سابق فإننا نبين أموراً بلاغية عدة في التعجب الذي يراد منه النهي. ومن ثم قال الزماني: "المطلوب في التعجب الإبهام، لأن من شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه، فكلما استبهم السبب كان التعجب أحسن"[24].

ولهذا يكشف أسلوب النهي التعجبي عن معانٍ دقيقة تتضمنها صيغته الوحيدة، ما يدل على ثراء في الدلالة؛ لكثرة ما توحيه منها... فالنهي في قول دعبل الخزاعي يراد منه التعجب؛ في الوقت الذي يبرز خصوصية التجربة الجمالية في نظرة الناس إلى الشيب:

لا تَعْجبي يا سَلْمَ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى

ولعل ما تقدم في هذا الأسلوب وما يأتي من التعجب في الأساليب المجازية الأخرى يبرز خَصائص البلاغة العربية باعتبارها وثيقة لغوية فنية شديدة الاتصال بالحياة والنفس.

14. الإيناس:

هذا معنىً طريف تختزنه صيغة النهي، وهو يدل على الألفة وبَعْث المودة في

النفس بعد الوحشة، أو يكون العكس تماماً... فمن الأول قوله تعالى على لسان رسوله الكريم يخاطب أبا بكر (ﷺ): ﴿لا تَحْزَن إن الله معنا﴾ (التوبة 40/9). فحالة الخوف والقلق والضّيق التي انتابت أبا بكر خشية اكتشاف المشركين لهما جعلت رسول الله (ﷺ) يُهَدئ نفس صاحبه ويبثُّ فيه السكينة. وكذلك أصاب الفزع والخوف لوطاً لما جاءت رسل ربه، فآنسته وأزالت عنه الوحشة قائلة له: ﴿لا تخف ولا تحزن؛ إنا مُنجّوكَ وأَهْلَك إلا امرأَتك كانت من الغابرين﴾ (العنكبوت 33/29) ومن الثاني قول المتنبي، وفيه يعبر عن وحشته التي ألقت بظلالها على نفسه، ولم يؤانِسْه إلا وحشة ذلك الطلل الذي قتله أهله بفراقهم له، بعد أن عمروه طويلاً؛ فقال:

لا تَحسَبُوا رَبْعكُمْ ولا طَلَلَهْ أَوَّل حيٍّ فِرْقكم قَتَلَهْ

خلا وفيه أَهْلٌ وأوْحَشنا وفيه صِرْمٌ مُرَوَّج إبلَهْ

فالمتنبي جاء بمعنى جديد حين جعل مفارقة الطلل قتلاً للرَّبْع، وبهذا أكد أن الجمال أوسع من الفن مهما اتصف بالنُّضْج... لأن المتنبي قدّم له ما لم يكن معروفاً من قبل...

15 . **الدوام والاستمرار:**

قد يتخذ أسلوب النهي سبيلاً آخر في المعنى ينتهي إلى تأكيد دوام الشيء واستمراره لأمر بلاغي يتضمنه السياق فضلاً عن معنى الثبات والسيرورة؛ كقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يفعل الظالمون﴾ (إبراهيم 42/14).

فالخطاب هنا موجه لرسول الله ليثبته على ما هو عليه؛ وأنه مطلع بشكل مستمر على كل ظالمٍ، ولا تغفل عينه عما يقوم به الكفار، ولكن الكافر يغتر بحلم الله وإمهاله له فيستمر بالعناد والظلم. لذلك جاء الفعل (لا تحسبَنَّ...) مفيداً مع السياق دلالة الثبات والاستمرار في الفعل المنهي عنه. وعليه قول أبي خراش الهذلي:

فلا تحسبي أَني تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ ولكنَّ صَبْري ـ يا أُميمَ ـ جميلُ

فهو ما يزال حزيناً على أخيه الذي فقده، وإن ظهر للناس أنه صابر... فحزنه حزن دائم على فقيده... ومثله قول النابغة الذبياني:

لا تَنْسَيَنْ فينا نَصيبك واذكرَنْ تَصَلِّيَنا في العارضِ المتضرِّمِ

فالنابغة ما زال على عهده بما جرى بينه وبين المخاطب، لذلك يريد أن يثبته مذكّراً إياه بذلك... أما المتنبي فقد تعوّد تذوّق العلقم، ولا يزال صابراً لم يجزع من فراق الأحبة على مرارته وشدته وديمومته فقال:

فلا يتَّهمَنّي الكاشحون فإنني رَعَيْتُ الرَّدَى حتى حَلَّتْ لي عَلاقمُه

وقال أبو الفتح البستي؛ مبيناً دوام جَزعه، واستمرار حزنه؛ فلا يزيده المخاطب فراقاً آخر:

فلا تُجْزِعنّي بالفراق فإنني لا تَستهلّ من الفراق شؤوني

وقد أحسن الزمخشري في الحديث عن هذا النَّمط من النَّهي المجازي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة 132/2) فقال: (فلا تموتن: معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام. فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا"[25]. وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد﴾ (آل عمران 196/3).

(لا يغرنك) الخطاب لرسول الله؛ أي (لا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد وكأنهم ثابتون فيها)... ثم ثبَّت في آن معاً ما هو عليه من إيمان وصدق في الدعوة. وكقوله: ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ (هود 42/11)... وهذا في النهي نظير قوله في الأمر ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة 6/1)... وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب. وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب؛ لأن التقلب لو غرَّه لاغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب"[26].

وللزمخشري كلام لطيف في دوام النهي وثباته واستمراره في شكل من

الإثارة والتهييج حين فَسَّر بعض آيات القرآن في ضوء ذلك[27]. وقد جمع بين الدرس الجمالي والفكر الجمالي الذي ينشده الأخلاقيون...

16 . النهي عن قبح الفعل وتعميمه:

تفرد الزمخشري في هذا الأسلوب ثم اختار أَفظع المعاني التي تدل عليه؛ إذ رأى أن اغتصاب حق اليتيم من أَشنع الأفعال قبحاً كما دل عليه قول تعالى: ﴿وآتَوا اليتامى أموالهم؛ ولا تتبدّلوا الخبيثَ بالطيّبِ، ولا تأكلوا أَموالَهم إلى أموالهم؛ إنه كان حُوْباً كبيراً﴾ (النساء 1/4). قال الزمخشري: "أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته؛ ولا شك أن النهي عن الأدنى وإن أفاد النهي عن الأعلى؛ إلا أن للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهي عن الأدنى؛ وذلك أن المنهيّ كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد. ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل، فخّصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام من أكل ماله مطلقاً... فنعَى عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم"[28] والجواب على ذلك؛ بقوله: ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ فالذنب عظيم وكبير... فجمالية هذا الأسلوب تكمن في التعبير المعجز الذي صوّر شناعة الفعل القبيح الذي يرتكبه مغتصبو مال اليتيم... وهو تعبير يستجيب للحاجة الروحية الجمالية التي يبنيها.

17 . المبالغة في تصوير المنهي عنه:

انفرد الزمخشري أيضاً في هذا الأسلوب الذي يفيد فيه النهي المبالغة في التصوير لتعظيم الحدث وبيان شأنه؛ وعليه قوله تعالى في قراءة (تَسْأَل) بالبناء للمعلوم: ﴿ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم﴾ (البقرة 119/2). فهذه القراءة معناها على النهي "روي أنه قال: ليت شعري ما فعل أبواي؟ فنُهي عن السؤال عن أَحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله، وقيل معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بليّة؛ فيُقال لك: لا تَسْأَلْ

obeikandi.com

عنه. ووجه التعظيم أن المستخبِر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره، وأنت يا مستخبرُ لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره؛ فلا تَسْأل"[29]. فالزمخشري يشدد على الصيغة اللغوية في قراءة فعل (تسأل) بالبناء للمعلوم؛ ليثبت استجابة النفس البشرية للوفاء بالحاجة الجمالية الروحية السامية؛ ما يجعله أحد أبرز الجماليين في استجلاء وظيفة جمال الأسلوب.

تلك هي أبرز وجوه المعاني التي خرجت إليها أساليب النَّهي المجازي؛ وإن كان هناك معانٍ أخرى يستطيع أن يقع عليها ذوو السلائق وأصحاب الإحساس المرهف... وكلها أكدت أن اللغة الفنية "متعددة النظم؛ وإدراكها لا يتم بصورة آلية؛ ومستوياتها تحمل معنى ليس معجمياً بالضبط؛ بل [مادة] واسعة من المعاني الجمالية... والثقافية... وهذا يعني أن اللغة في النص الأدبي تكون أكثر من مجرد حامل محايد للمعنى؛ إذ إنها جزء من المعنى"[30]. والشرط الأصيل في ذلك أن يساق المعنى على أساس من القالب الفني الجمالي لأن الشعر، أو النثر الفني لا يطرح منظومة من المعارف والعلوم كما نراه في النثر العلمي.... وكذلك نراه في الكلمة المعجزة الراقية أدبياً للغة القرآن الكريم. فكل ذلك يحقق وظيفة عاطفية وفكرية وتربوية و... وفنية ويدفع العقل الواعي إلى التفكير فيما وراء الصورة الفنية؛ ولا سيما الصورة الشعرية؛ حتى يغدو الشعر أو النثر الفني بعد لغة القرآن المعجزةِ معرفةً فيما وراء المعرفة الفنية.

وفي ضوء هذا يمكن أن ندفع بتصور (دوسوسير) للعلامة بوصفها توحيداً بين دال ومدلول إلى أبعد مدىً. فاللغة نفسها تبيح للمتلقي أن يؤسس مدلولات لها تمتد إلى ما وراء الواقع في سياق ممارسةٍ خارجَ إطار القواعد والمقاصد المباشرة[31] وهو ما تبنى عليه العلاقة بين المعنى والأسلوب الذي تساق فيه. وكل أسلوب يعتمد على قابلية محددة تنتج عن المؤثرات الذاتية والموضوعية؛ ما يجعل الأسلوب البلاغي نتيجة أخرى لحيز الوعي بها، ثم التعبير عنها...

فأساليب البلاغة في أسلوب النهي تنبع من موقف المتكلم وفق قرائن

تشكيلية جمالية تتصل بالموقف الإنساني عن طريق المخاطب والرسالة أو لنقل عن طريق الخطاب برمته... وهو تشكيل يظهر مثله في أسلوب الاستفهام...

obeikandl.com

obeikandl.com